في الفكر العربي الحديث :

معنى "الأيديولوجية الانقلابية" ومضمونها

بقلم سامي الخضراء الجيوسي

الثقافة العربية المعاصرة (*) في حاجة الى النتاج ذي المستوى العالمي في جميع حقول الفن والعلم . خذ مثلا علم الاجتماع والسياسة – فمن عهد ابن خلدون لم يستطع ان يفرض اي مفكر عربي على العالم ، انتاجا اصيلا مهما من نوع فريد : اي ان يغني الثقافة العالمية بدراسة اصيلة ذات نظريات جديدة لم يشبعها الغرب علكا ومضغا وتمحيصا . الدراسة الطويلة التي بين يدي الان تستطيع، حسب اعتقادي، ان تفخر بانها من هذا المستوى العالمي الرفيع . انني اتكلم هنا عن كتاب « الايديولوجية الانقلابية » للدكتور نديم البيطار .

قبل ان نفتح الكتاب الكبير لفت عنوانه نظرنا . لقد اقترنت كلمة « انقلاب » في اذهاننا بتلك الانقلابات السريعة المتعددة التي قامت في الوطن العربي وفي اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية بعد الحرب الكبرى الثانية ، والتي برهنت ، في الاغلبية الساحقة من حالاتها ، على محدوديتها وافلاسها . اما كلمة « ثورة » فقد اكتسبت لنفسها في عقولنا قدسية شديدة ، واقترنت بصفات النبالة والتضحية والتكريس ونذر النفس ، واصبحت صفة « الثوري » مطمحا ولقبا وهوية نعلنها نحن عن انفسنا او يعلنها الآخرون عنا . الدكتور البيطار يرى في تعريف الكلمتين غير هذا . انه يفصلهما عن مفهومهما الشائع ويعود بهما الى اصليهما . فكلمة « ثورة » تعني موقفا يتمرد فيه الفرد ضد شيء ما ، دون ان تدل على ان ذلك التمرد يجب ان يعني تحويلا لذلك الشيء بشكل يغير طبيعته . فقد يكون موقف التمرد يعبر عن روح محافظة تتمرد ضد تحول ما للوجود التقليدي . اما كلمة انقلاب فهي تعني تحول الشيء عن معالمه الاولى . اننا ، عندما نقول « انقلب الشيء » نعني انه خسر قواعده القديمة واسسه وان معالمه السابقة قد تغيرت.

وعلى هذا تكون الرجعية ، في الفترات الانقلابية مثلا ، في حالة ثورة حاقدة على عوامل التجديد والتغير التي تقلب طرازها ومعتقداتها.. وهي ثورة تستعد لان تأخذ شكلا عمليا اذا اتيحت لها الظروف، كما حدث في فاجعة ٢٨ ايلول . ان ما حدث في دمشق في ذلك النهار هو انقلاب جذري في الوضع ، غير انه مجرد انقلاب رجعي الى الوراء وليس انقلابا ايديولوجيا .. فما هو اذن الانقلاب الايديولوجي ؟

في ظروف كهذه تكون الامة قد استنفدت منذ زمن جميع نوازع الخير والحيوية اللذين كانا ينضويان يوما في اسلوب الحياة القديم (اي في ايديولوجيتها القديمة) وتكون قد وصلت الى الشفة من الافلاس الروحي حيث تجد نفسها في حالة نفسية متأزمة تتسم بالاكتشاف الفاجع لبؤر الضعف والانحلال التي كانت قد اصابتها وقادتها الى الهاوية . انها تجد نفسها في وضع اشبه بفضيحة عالمية، وهذا الاكتشاف يولد فيها منازع الرفض لاوضاعها ولمسببات هذه الاوضاع .. ويوجه تأزمها نحو نفسها .. غير ان اكتشافها لمثاليتها قد يكون جزئيا فيقصر اللوم على الافراد المسؤولين وحدهم وكأنهم هم السبب الوحيد في ما اصابها من اندحار . فتوجه الاتهامات اليهم ، سرا او علنا ، ويقوم في الامة نشاط هائل غايته الاقتصاص منهم والتخلص من فجورهم وكف كل قدرة فيهم على الاذى . وما تولده فجيعة الاكتشاف من حيوية في الامة يعبر عن نفسه في حوادث القتل والاغتيال والنفي والانقلابات العسكرية المتتالية التي تعيد الى المسرح من جديد نفس الرؤوس تقريبا وان كانت بوجوه والسنة جديدة . ذلك لان المسؤولية الحقيقية عن اي انهيار يحدث في الامة لا يمكنها ان تنحصر في افراد معدودين . هذا يتضح جيدا في حالة الامة العربية سنة ١٩٤٨ ، اذ انه لم يكن ممكنا ان يتفق ، بمحض الصدفة ، ان يحكم جميع الدويلات العربية المتعددة افراد شريرون هم القلة النادرة في عالم خير ومعافى .

ان المسؤول الحقيقي هو الوجود القديم الذي استنفد طاقته ، الوجود القديم بعلائقه الروحية والفكرية ، بكل توجهه نحو الحياة،بطريقة تفكيره ، بمنطقه ، بردود فعله نحو الاشياء والاحداث ، بتجمده،وانغلاقه وبلادته وانحلاله الروحي . والامة ، في ضميرها اللاواعي ، تدرك هذا وتعرف بكل مبهم لم يعبر عن نفسه بعد بالكلمة الواضحة والتفسير العلمي ، انه هو المسؤول – ولذلك فهي تعبر عن هذه المعرفة اللاواعية بالكراهية المبهمة والنفور الغامض اللذين تشعر بهما نحو كل ما كان يعتبر مقدسا من قبل . وتتميز ردود الفعل بالانفصال التدريجي عن بوادر الايمان القديم من جميع نواحيه ، اي بالدخول التدريجي في نوع من الفراغ العقائدي المثقل بالتساؤل والتشوف .

واذ تصل الامة الى هذا الوضع، وهو وضع يقول الدكتور البيطار ان الامة العربية قد وصلت اليه اليوم ، يصبح لزاما ان يعبر النشاط الوافر الذي يسود بحث الامة عن حل اخير ، عن عقائدية جديدة شاملة هي انقلاب على اشكال الايمان القديمة التي ميزت الوجود التقليدي . ان شمول الايديولوجية الجديدة وانقلابيتها هما الشرطان الجوهريان لاستكمال دورة التاريخ والخروج منها بامة فتية قوية قادرة ، ليس فقط على مواجهة الحياة المعاصرة لها ، بل على الفعل فيها والتأثير على مجراها .

فالايديولوجية الانقلابية اذن لا تعني موقفا سياسيا ثوريا فقط ، مهما كان جذريا ، ولا تعني الاكتفاء بتبديل النظام الاجتماعي وما فيه من علاقات طبقية ، بل هي بالاضافة الى ذلك تشكل نمطا جديدا في الحياة.. ان الانقلابية التي يصر عليها التعريف لا تقتصر على اجراء تحويل سياسي اجتماعي وخلق نظم جديدة تحقق نجاح هذا التحويل ، بل انها تحتاج قبل كل شيء الى فلسفة حياة ينطلق منها الفرد والمجتمع .

الايديولوجية الانقلابية هي فلسفة حياة جديدة تحل محل فلسفة الحياة القديمة التي قادت الى الانحلال عندما استنفدت حيويتها وفتوتها ومقوماتها (١) . انها ، في معناها الصحيح المتكامل ، نظام او سلسلة من المبادىء والنظريات يصور فيها اتباعها المرحلة التاريخية التي يمرون بها والعلاقات التي تربط بينهم وبينها . انها المفهوم العام الذي يحدد علاقة الانسان بالمجتمع والتاريخ والحياة ، ويعين القوى والاتجاهات والسنن التي تسود هذه العلاقة وتفسرها . في ضوء هذا

(*) راجع القسم الاول من هذا البحث في العدد الماضي من الاداب.

(١) ظهر هذا بشكل واضح في حالة العرب – فالانحلال الروحي هو الذي قاد الامة الى النكبة . راجع كتاب الدكتور البيطار الثاني «الفعالية الثورية في النكبة» حول هذا الموضوع .

المفهوم تصبح الثورة المتكاملة حركة تمرد تعبر عن فلسفة حياة جديدة . وهذه الايديولوجية تكون انقلابية عندما تنكر الوجود التقليدي بما ينطوي عليه من نظم وقيم ، وبالاخص بما يعتمده من ايديولوجية تقليدية .

اما الايديولوجية ، بمعناها المجرد ، فهي اية فلسفة حياة تترجم وتفسر موقع الانسان من المجتمع والتاريخ وتحيط به احاطة تامة شاملة . هذا التعريف يشمل جميع الايديولوجيات ، بما فيها تلك الايديولوجيات البالية التي استنفدت طاقتها واصبحت قيودا تؤخر تقدم الانسان او عبئا تسبب له التعاسة اذ يؤخر تجاوبه مع روح العصر. ولكن الايديولوجية تكون انقلابية عندما تقدم تفسيرا جديدا لموقع الانسان من التاريخ والمجتمع .

كلمة « جديد » هنا لا تعني ان عناصر الايديولوجية الانقلابية يجب ان تكون جديدة في العالم وفي تجربة الانسان . من الصعب جدا ان نجد بهذا المعنى ايديولوجية جديدة واحدة في التاريخ ـ غير ان «جدتها» تقع في قدرتها على مفاجأة وعي الانسان وتغيير معالم تفكيره وقلب مفاهيمه جميعها بالقضاء على الايديولوجية القديمة باسم مفهوم في الانسان وفي الحياة هو جديد عليه . ان اول خطوة تقوم بها الايديولوجية الانقلابية هي تحرير العقل من ايمانه القديم بمفاهيم الايديولوجية التقليدية التي كان يعيش في كنفها .

وتختلف درجة « الانقلابية » وحدتها من ايديولوجية الى اخرى. فدرجة الانقلابية ترتبط بمقدار التكامل الذي يتحقق لها في التفسير الجديد الذي تعطيه عن الانسان وعلاقته بالتاريخ ، كما ترتبط بحدة الرفض الذي تواجه به الوجود التقليدي .

ان هذا التحديد للايديولوجية الانقلابية لا يقتصر على المذاهب الزمانية الجديدة بل يشمل ايضا المذاهب الغيبية او الاديان التاريخية في بدء ظهورها ، اي في مراحلها الاولى عندما كانت في صراع محتدم مع الوجود الروحي العقائدي التقليدي وهي تحاول ان تباشر تحقيق وجودها على مسرح التاريخ .

وعندما تحقق الايديولوجيات الانقلابية ذاتها تبدأ باستنزاف قواها في امتدادها ذاته وتتحول عندئذ الى قوى محافظة ورجعية . هذا التطور والتغير في معالم الايديولوجيات الانقلابية عبر مراحلها الحياتية يوضحه الدكتور البيطار في الفصل الذي يتحدث فيه عن الايديولوجية الانقلابية واللاهوت .

والتعريف المتقدم للايديولوجية الانقلابية يمتد الى كل تجربة ثورية تحقق شروطه ، مهما تنكرنا للتجربة وخاصمناها من ناحية فلسفية او اخلاقية : هذا شرط اساسي في كل تفكير فلسفي اجتماعي يحاول الكشف عن منطق الاحداث وعن اتجاهات التاريخ والسنن التي تسود تحولاته وتغيراته . وهو يشكل خاصة اولى في المنهجية العلمية لا يستطيع اي فكر موضوعي علمي ان يتجاهلها .

ولقد قارنت دراسة الدكتور البيطار بين شتى الايديولوجيات تبعا للتعريف الذي تقدم دون اي موقف خاص من اي منها ، بل بالتزام موضوعي كامل استطاع عن طريقه ان يقف خارجها فيدرسها ويقيمها دون اية مفاضلة بينها سوى المفاضلة التي تنشأ عن الدرجة الانقلابية التي حققتها كل منها . هذه الدرجة الانقلابية تتراوح ، كما اسلفنا ، باختلاف درجة نهديمها للقواعد العقائدية التقليدية ، وباختلاف درجة استبدال هذه القواعد بقواعد وضوابط اخرى للسلوك ، وكذلك باختلاف درجة الشمولية والعمق في الايديولوجية الانقلابية وقدرتها على نقض الوجود التقليدي ككل باسم صورة انسانية جديدة متكاملة .

وينبه الدكتور البيطار في عدة مواضع من كتابه الكبير بان كل مقارنة بين الايديولوجيات التاريخية تستهدف معنى هذه الايديولوجيات او تقابل بين الدرجة الانقلابية التي حققتها كل منها ، يجب ان تتم في مراحلها المتشابهة . لان الايديولوجية هي بلورة وضع انساني معين في طور تاريخي محدد ، ولكي تكون المقارنة علمية وصحيحة يجب ان تقارن بين الايديولوجيات في مراحل تحققها المتشابهة . فلو اخذنا المسيحية او الليبيرالية مثلا ونظرنا اليهما على ضوء ذلك التعريف للايديولوجية الانقلابية ، كان لزاما علينا توجيه دراستنا ومقارنتنا الى الطور الديناميكي الذي مرت به كل منهما ، وهو ذلك الطور الذي رفضنا به النظم العقائدية التقليدية واخذنا في بناء صرح عقائدي جديد يعبر عن الايديولوجية الجديدة . ولذلك فان المفاهيم التي يقول بها مفكرون من امثال مالرو وكار حول الايديولوجيات التقليدية من غيبية كالمسيحية ومن زمانية كالليبيرالية بانها محافظة بشكل يوحي بانها كذلك في طبيعتها الذاتية وبانها كانت دائما محافظة منذ نشأتها لهي مفاهيم خاطئة لانها لا تفرق بين اطوارها المختلفة . ان هذه المفاهيم التي ترى ان تلك الايديولوجيات محافظة ورجعية تعجز عن ان تدرك بانها كانت ثورية في طورها الاول عندما قامت لتحل محل مفاهيم عتيقة بالية . وعلى هذا الضوء تصبح المقارنة بين الليبيرالية والشيوعية الروسية مثلا في اطاريهما الحاليين ومواقفهما المعاصرة مقارنة تعسفية لانها تتجاهل الاختلاف في طوريهما التاريخيين والمرحلة التاريخية التي تمر بها كل منهما، فتقابل بين ايديولوجية لم تزل في طورها الديناميكي (الشيوعية) وبين اخرى تجاوزت هذا الدور منذ زمن بعد (الليبيرالية) . وقد نجد هنا ايضا سببا رئيسيا للاختلاف القائم بين روسيا والصين مثلا . فهو اختلاف يرجع الى درجة كبيرة ، حسب مفهوم الدكتور البيطار ، الى اختلاف الطور التاريخي الذي تمر فيه الايديولوجية الشيوعية في كل من البلدين. فبينما نراها قد حققت ذاتها الى حد كبير في روسيا ، نراها في الوقت نفسه لم تزل في بداءة طورها الديناميكي الان ، تحول ان تخلق مجتمعا على صورتها في الصين .

هذا تلخيص شديد الايجاز لجزء من المنهج الفكري الذي يدور

صدر حديثا :

اخر رواية كتبها الاديب الكبير

كولن ويلسون

ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق

الشك

رواية عاطفية ، وفلسفية ، وبوليسية ... في وقت واحد ! وهي كذلك فضح لاساليب اليهود الاجرامية وتحليل لتأثير المخدرات !

من هنا كان غنى رواية « الشك » ، وما تثيره لدى القارىء من شوق وفضول ... وليس ذلك غريبا على واحد من اكبر مفكري هذا العصر ...

منشورات دار الاداب ٥٠٠ ق.ل

حوله الكتاب . غير ان الدراسة التفصيلية اللامعة التي يقدمها الدكتور البيطار تسمح بهذا النوع من التلخيص لانها ، ككل دراسة مركزة،هادفة ومتخصصة ، ملمومة بالرغم من تشعبها وشمولها . أن التفاصيل تتفرع من دائرة الوسط وتحيط باللباب الذي فسرناه دون ان تتسرب عن قطر الدائرة او تنفلت منه . وهذا من ميزات تفوقها كدراسة شاملة لناحية معينة من نواحي التاريخ والتغير الاجتماعي .

بالطبع انها ليست سهلة على القارىء العابر ، على من يريد من القراءة الفكرية ان تزوده بقبضة من التعابير الفلسفية الجاهزة ، او الشعارات او التفسيرات القريبة السهلة التي تكرر نفسها في كل صفحة، او على من يريد من القراءة الفكرية ان تزوده بقائمة شاملة لشروط التقدم والازدهار التي يقرأها ، ويوافق عليها ، ويحيل تنفيذها على الشخص الاخر ... او من يتوخى تقريعا ولوما يريح ضميره قبل ان ينطلق من جديد في حياته اليومية المثقلة بالهموم الصغيرة التافهة ، هذه الدراسة هي ثقافة سياسية واجتماعية شاملة في جوهر الثورات والانقلابات وفي دور الايديولوجيات المهمة التي تعبر عن فلسفة حياة شاملة . فعلى ضوء هذه الدراسة نرى ان الايديولوجية الانقلابية تشكل ظاهرة ثابتة مستقرة في التاريخ ترافق هذا التاريخ في مراحل وادوار معينة . هذا يدعونا الى التساؤل ان كانت تلك الظاهرة تعبيرا عن نزوع اصيل او غريزي في الطبيعة الانسانية ام لا . انها بلا شك تفسر عطش الانسان الدائم الى ما يؤمن به وسعيه المستمر نحو تحقيق وجوده من جديد كلما برهن هذا الوجود على افلاس وانحلال – اي انها تفسد ديناميكية حياة الانسان وقدرته على ترك ما بلي واعتناق الجديد،وتؤكد نشاط العقل الانساني عبر عصور التاريخ وهو نشاط لا يذوي ابدا ، وتبرهن على قدرته على مقاومة القوى العدائية للحياة وللانسان . فان لم تكن ظاهرة الايديولوجية الانقلابية التي تكرر نفسها في التاريخ كلما تشابهت الظروف والاوضاع من خصائص الطبيعة الانسانية فهي دون شك خاصة اساسية من خصائص الوضع الانساني ، متأصلة في ديالكتيكه الخاص .

والقارىء العربي الواعي مطالب بالوقوف مليا امام هذه الدراسة الخلاقة وباعتصارها عصرا . انه لا عذر لاي « ثوري » تقدمي ، ممن يستطيع استيعاب الانتاج الفكري العميق ، ان يعبر بهذا الاثر العظيم النادر دون ان يستفيد منه الى اقصى حد ، فعلى ضوء هذه الدراسة المقارنة يستطيع الثوري العربي (الانقلابي على حد تعبير الدكتور البيطار) ان يكتشف ابعاد الوضع العربي ، وامكاناته الهائلة ، واستعداده العميق الى الانقلاب الجذري وتغيير وجه التاريخ في هذا الجزء من العالم . وهو بعد ذلك سيشعر بالمسؤولية الشخصية التي هي جوهر في نفسية الثوري الانقلابي ، وسيتحرك في ضميره الدافع الملح الى تلبية هذا النداء الذي ينطلق من قلب التاريخ نفسه تلبية تستقطب ابعاد نفسه جميعها وصورة حياته اليومية . ان مسؤولية الثوري العربي المعاصر اصبحت الان مسؤولية يومية والوضع التاريخي المتاح للامة هو وضع لا يحتمل التأجيل والمطل . ان التاريخ يوفر لنا في مرحلته الحالية طريقا نحو الثورة الكبرى الشاملة ونحو الدولة الواحدة ... وعلينا ان ننقض على الفرصة النبيلة المتاحة لنا كالبزاة . فهذه الفرصة التي تحمل لنا امكان الانتصار على كل ما خذلنا داخل نفوسنا وخارجها ، وعلى ماضينا القريب المفمس بالفجيعة تحمل لنا في الوقت نفسه امكان التردي والخسران ان نحن « احسنا » اضاعتها و « اتقنا » السبيل الى اجهاض كل مسعى خير معافى يقود الى الدرب . انني لا اخشى على هذه الفرصة التاريخية من الضياع عن طريق الرجعية العربية ، بجميع وجوهها المألوفة والخفية ، ولا بسبب قوى الاستعمار المتكالبة علينا ، بل بسبب عجز الثوريين العرب عن تفهم قيمة المرحلة التي نمر بها وخطورتها من جهة ، ووقوفهم عند حدود قواعدهم العقائدية التي تقصر عن ثوريتهم من جهة اخرى .

سلمى الخضراء الجيوسي

علم العصيان والثورة

لا جديد تحت الشمس !

اذا صح هذا القول جزئيا في بعض الاحداث السياسية ، فهو صحيح كليا في ما يتعلق بالحروب ، ولا سيما « حروب العصيان والثورة » . فما يجري اليوم في فيتنام ، والكونغو ، واندونيسيا ، والجنوب العربي لا يختلف الا جزئيا عما جرى قديما في ايطاليا ، وصقلية ، وافريقيا الشمالية ، على أيدي اسبارتاكوس، وأنس التدمري ، وغيرهما من قادة الثورات ، وعما جرى في فرنسا واوروبا في اواخر القرن الثامن عشر ، وعما خبرناه من المعارك الضارية بين الجيوش النظامية والانصار خلال الحرب العالمية الثانية .

الحقيقة الكبرى التي نستخلصها من هذه الحوادث المتوالية عبر العصور هي : ان الجيش النظامي يعجز عن كبح جماح العصابات الثائرة لان حاجاتها أقل بكثير من حاجاته ، لا لانه أضعف منها . فهي لا تحتاج الى مؤخرة ، ولا الى مواصلات ، ولا الى طرق تموين . تضرب وتتوارى عن الانظار ... بينما هو كتلة ضخمة معرضة للضرب كل ساعة وفي كل مكان.

هذا ما أثبته الكتاب العسكريون ، وفي مقدمتهم الالماني كلاوزويتز ، وما عززه بالوقائع والارقام الزعيم غبريال بونيه الفرنسي ، أستاذ العلوم الحربية العليا في باريس ، في كتابه الغني بالمعلومات : « حروب العصيان والثورة من فجر التاريخ الى اليوم » ، فاطلبه مترجما الى العربية ، ومعلقا عليه بما يوضح الثورة الجزائرية بمختلف عواملها السياسية ، والاقتصادية ، والانسانية . اطلبه من « **دار المكشوف** » ، بيروت ، ص.ب. : ٥٨١ ، تلفون : ٢٢٤٧٧٠ .